قطز وبيبرس

أندادنا هذه المرة هما من تصديا جنبًا بجنب لدحر خطر المغول عن مصر وبقية العالم، ليتحقق لهم الانتصار في النهاية في معركة "عين جالوت"، ليغتال أحدهما الآخر وهما في طريق العودة، خوفًا من أن يغتاله هو!

عن قطز وبيبرس نتحدث.. عن الصداقة التي انتهت بمقتل سيف الدين قطز، قاهر المغول على يد صديقه والذي تولى الحكم ليصبح فيما بعد الملك الظاهر بيبرس.

ولد قطز أو الأمير محمود بن ممدود الخوارزمي في أسرة ملكية بمملكة خوارزم شاه بفارس، ولد محمود للأمير ممدود ابن عم وزوج أخت السلطان جلال الدين الخوارزمي، ونشأ نشأة الأمراء وتدرب فنون القتال على يد خاله جلال الدين نظرًا لاستشهاد أبيه، وهو ما يزال رضيعًا في حروب المسلمين الأولى ضد المغول، وكان اسمه وقتها محمود، ثم دارت الدائرة على مملكة جلال الدين وقضى المغول عليه وعلى ملكه، وأسر الأمير محمود وبيع عبدًا في السوق لثري من أثرياء الشام، فربَّاه الثري وأحسن تربيته فتعلم اللغة العربية وأصولها وحفظ القرآن الكريم ودرس الحديث، وبعد موت الثري أصبح قطز مملوكًا لابن الثري، ولم يجد منه عنايةً وحسن تعامل، فبيع قطز لثري آخر من أثرياء الشام، وكان هذا الثري مدخلًا لقطز لدخول الحياة السياسية والجهاد ضد الصليبيين، فهذا الثري هو ابن واحد من أكبر معاوني العالم العربي الجليل العز بن عبد السلام، فتربَّى قطز تربيةً جديدةً وجاءت الحروب الصليبية على الشام ومن ضمنها دمشق، وعندما تخلى الصالح إسماعيل عن جهاد الصليبيين وهادنهم، نهض الملك الصالح نجم الدين أيوب للدفاع عن المسلمين، فاشترك قطز من

ضمن المدافعين من أهل دمشق مع الجيش المصري، وكان له دور مع بقية أهل الشام في انتصار المسلمين على الصالح إسماعيل وأعوانه من الصليبيين.

وكان المغول هم الذين أطلقوا على محمود ابن الأمير ممدود اسم قطز، وهذه الكلمة بالتترية تعني الكلب الشرس، فقد كان واضحًا على قطز علامات القوة والبأس من صغره، فلذلك أطلق عليه المغول هذه الكلمة.

أما بيبرس فهو مختلف في أصله، فبينما تذكر جميع المصادر العربية والمملوكية الأصلية أنه تركي واسمه بيبرس، وهو اسم تركي مؤلف من "بي" أي أمير و"برس" أي فهد، فإن بعض الباحثين المسلمين في العصر الحديث يشيرون إلى أن مؤرخي العصر المملوكي من عرب ومماليك كانوا يعتبرون الشركس من الترك، وأنهم كانوا ينسبون أي رقيق مجلوب من مناطق القوقاز والقرم للقبجاق، وذكر المقريزي بأنه وصل حماة مع تاجر وبيع على الملك المنصور محمد حاكم حماة، لكنه لم يعجبه، فأرجعه وذهب التاجر به إلى سوق الرقيق بدمشق وهو في الرابعة عشرة من عمره، وباعه هناك بثمانمئة درهم، لكن الذي اشتراه أرجعه للتاجر لعيبٍ خلقي كان في إحدى عينيه، فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري، ثم انتقل بعد مصادرة ممتلكات سيده علاء الدين أيدكين إلى خدمة السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب بالقاهرة، ثم أعتقه الملك الصالح ومنحه الإمارة فصار أميرًا، كان بيبرس ضخمًا طويلًا ذا شخصية قوية وصوته جهوري وعيناه زرقاوان، ويوجد بإحدى عينيه نقطة بيضاء، وقد يكون سبب زرقة عينيه أن أصله كان مختلطًا، كان شعار دولته الأسد، وقد نقش صورته على الدراهم.

شارك قطز وبيبرس جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب في صد الحملة الصليبية السابعة، وتمثلت شجاعة المماليك في الانتصار

الكبير الذي حققوه في معركة المنصورة، والتي أسر فيها الملك لويس التاسع قائد الحملة، وكانت من أهم أحداث معركة المنصورة إعلان وفاة الملك الصالح وتنصيب توران شاه ملكًا لمصر، ومن أهم نتائج المعركة أيضًا وصول المماليك لحكم مصر والقضاء على الدولة الأيوبية، بوفاة آخر حكامها توران شاه.

بعد أن قررت شجرة الدر التنازل عن الحكم، اختارت عز الدين أيبك التركماني الصالحي خليفةً لها بعد زواجها منه، وقد وافق أمراء المماليك -وقطز أحدهم- على اختيار أيبك كأول سلاطين الدولة المملوكية، وقد شارك قطز السلطان أيبك في هزيمة الأيوبيين بقيادة الملك الناصر في معركة عند بلدة العباسة بين الصالحية وبلبيس، وعندما دب الخلاف بين عز الدين أيبك وفارس الدين أقطاي، قرر أيبك إنشاء فرقة من المماليك عرفوا فيما بعد بـ"المماليك المعزية"، نسبةً إلى لقب عز الدين أيبك، الملك المعز، وعين مملوكه قطز المعزي نائبًا للسلطنة في مصر، ولما أحس أيبك بخطر الأمير أقطاي وخطر فرقته المماليك البحرية، خشي أيبك على حياته بعد أن وصلته أخبار عن عزم أقطاي اغتياله، فدبر أيبك خطة لاغتيال أقطاي بمساعدة نائبه قطز وبعض مماليكه المعزية، استدعى أيبك غريمه أقطاي للمثول أمامه في القلعة لاستشارته في بعض الأمور، وفي الميعاد المحدد حضر أقطاي إلى القلعة ومعه عددٌ من مماليكه، ودخل باب القلعة المؤدي لقاعة العواميد، وتم إغلاق الباب ومنعت المماليك البحرية من الدخول، وبسرعة انقض عليه الأمير قطز ومن معه من المماليك المعزية وقتلوه بالسيوف، وألقي برأسه إلى المماليك البحرية، ففر المماليك البحرية من مصر إلى سوريا والكرك وسلطنة الروم السلاجقة وأماكن أخرى، وكان في مقدمتهم بيبرس وقلاوون الألفي وبلبان الرشيدي وسنقر الأشقر الذين فروا إلى دمشق.

ثم وقع الخلاف بين أيبك وزوجته شجرة الدر بسبب تمرده عليها، وعدم إشراكها في حكم مصر، وبسبب تخلصه من المماليك البحرية، وما زاد الأمر سوءًا عزم أيبك الزواج من ابنة ملك الموصل بدر الدين لؤلؤ، فعزمت شجرة الدر على قتل أيبك، وكان لها ما أرادت وقتل خمسة من غلمانها أيبك وهو في الحمام، وبعد انتشار خبر وفاة الملك المعز، حاولت شجرة الدر إخفاء واقعة القتل، حيث ادعت أن أيبك وقع من فوق جواده، إلا أن مماليك السلطان المعز بقيادة الأمير قطز كشفوا حقيقة قتلها للسلطان، وقرروا قتلها وتسليمها لزوجة أيبك الأولى، والتي أمرت جواريها بضربها بالقباقيب، حتى فارقت الحياة.

صمم المماليك المعزية وعلى رأسهم سيف الدين قطز على أن يقيموا على العرش الذي بات شاغرًا بمصرع أيبك، صبيًا صغيرًا في الخامسة عشرة من عمره، وهو نور الدين علي، ابن سيدهم عز الدين أيبك، ولقبوه بالملك المنصور علي، وقد رفض بعض المماليك الاعتراف بالسلطان الصغير، وتجسَّد رفضهم في عدة اضطرابات عاصفة استنجدت بعض الفئات المتنازعة بملوك بني أيوب في الشام، وحاول المغيث عمر صاحب إمارة الكرك غزو مصر مرتين، ولكن الفشل حالفه، وكانت كل هذه الاضطرابات فرصة جيدة ومناسبة لظهور نجم سيف الدين قطز، فبعد أن عزم المماليك الصالحية داخل مصر على الانقلاب على المماليك المعزية وقائدهم قطز، وحاولوا تنصيب الأتابك سنقر الحلبي سلطانًا لمصر، سارع قطز باعتقاله وحبسه في سجن القلعة، وتطورت الأمور بهروب الكثير من المماليك المعارضين إلى الشام، فطاردهم قطز وقبض على الكثير منهم وسجنهم في سجون القلعة.

استقرت الأمور نسبيًّا لقطز في مصر وخلا له الجو، فصار نائب السلطان وصار المدبر والحاكم الفعلي لمصر، إذ إن السلطان الجالس

على العرش طفل صغير، وكان جلوس السلطان الصبي على العرش مسألةً الغرض منها كسب الوقت، حتى يتمكن واحد من كبار المماليك من حسم المسألة لطرفه، ولم يشأ قطز أن يتعجل الأمور بحسم أمر السلطة له ومواجهة المنافسين بعد وفاة عز الدين أيبك، فأمسك بزمام السلطة الفعلية تاركًا للسلطان الصبي شعار السلطنة ولقبها.

ثم بدأ قطز بترتيب الأوضاع الداخلية لصالحه، في حين كانت الشائعات تملأ سماء القاهرة بأن السلطان الصغير يريد خلع قطز مملوك أبيه، واجتمع الأمراء في بيت أحد كبارهم وتكلموا، إلى أن نجحوا في إصلاح الأمور بين الملك المنصور علي وبين مملوك أبيه الأمير قطز، وبذلك توطدت مكانة سيف الدين قطز في الدولة.

بعد قرابة ثلاث سنوات من حكم نور الدين علي بن أيبك، مصر بدأ صدى طبول الحروب التتارية يتردد على حدود مصر، واقتربت رياح الغزو المغولي لبلاد الشام ومصر، ولم يكن بوسع السلطان الصبي نور الدين علي أن يفعل شيئًا إزاء خطر المغول الداهم والقريب، إذ كان يقضي وقته في ركوب الحمير والتنزه في القلعة واللعب بالحمام مع الخدم، ومع كل خبر جديد يصل عن وحشية المغول في البلاد التي يقومون بغزوها، كانت الأحوال في مصر تزداد اضطرابًا، ومع اقتراب جحافل المغول من الشام، أرسل الملك الناصر رسالةً حملها المؤرخ والفقيه كمال بن العديم إلى مصر يستنجد بجيشها، قدم ابن العديم إلى القاهرة عقد مجلس في القلعة حضره السلطان الصبي المنصور نور الدين علي، وحضره كبار أهل الرأي من العلماء والقضاة مثل قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري، والشيخ الجليل العز بن عبد السلام، وكان من بين الحاضرين سيف الدين قطز، وكان هذا الاجتماع آخر خطوات قطز نحو وصوله لعرش مصر وقتال المغول، فقد استغل قطز اجتماع القلعة لخلع السلطان الصبي، وأخذ في الاجتماع يتحدث عن مساوئ المنصور علي وقال إنه لا بدَّ من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك الصبي لا يعرف تدبير

الملك، وساعد قطز في الوصول لهدفه أن مساوئ السلطان المنصور علي كانت قد زادت حتى انفض الجميع من حوله، واستهتر في اللعب وتحكمت أمه في أمره، فاضطربت الأمور، وانتهز قطز الفرصة المناسبة عندما خرج أمراء المماليك البحرية والمعزية في رحلة صيد في منطقة العباسية في الشرقية، وعلى رأسهم الأمير سيف الدين بهادر والأمير علم الدين سنقر الغتمي، وقبض قطز على السلطان المنصور علي وأخيه قاقان وأمهما، واعتقلهم في أحد أبراج القلعة، وفي هذا اليوم انتهت مدة حكم السلطان المنصور علي والتي استمرت سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام، وحين قدم المماليك من رحلة الصيد بقيادة سيف الدين بهادر، وعلم الدين سنقر، أنكروا على قطز ما فعله، فأخبرهم بخطر المغول القادم على بلاد الشام ومصر، الذي يستلزم سلطانًا قويًا يواجههم.

أصبح خطر المغول يهدد مصر بعد أن تمكنوا من الاستيلاء على جميع الإمارات والدول والأراضي الإسلامية، حتى وصلت سلطتهم إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر إلا معركة الحسم، بدأ السلطان قطز التحضير لمواجهة المغول، وكان أول أمر يصدره العفو العام والشامل عن المماليك البحرية الذين فروا إلى الشام بعد مقتل زعيمهم فارس الدين أقطاي، وعلى رأسهم صديقه السابق بيبرس، كانت هذه الخطوة أبرز قرار سياسي اتخذه قطز، فقوات المماليك المعزية لا تكفي لحرب المغول، وكانت المماليك البحرية قوة عظيمة وقوية ولها خبرة واسعة في الحروب، فإضافة قوة المماليك البحرية إلى المماليك المعزية الموجودة في مصر، ستنشئ جيشًا قويًا قادرًا على محاربة المغول، استقبل قطز بيبرس استقبالًا لائقًا وعظم شأنه وأنزله دار الوزارة وأقطعه قليوب وما حولها من القرى، وجعله في مقدمة الجيوش في معركة عين جالوت.

قام سيف الدين قطز بتقسيم جيشه لمقدمة بقيادة بيبرس، وبقية الجيش يختبئ بين التلال وفي الوديان المجاورة كقوات دعم أو لتنفيذ

هجوم مضاد أو معاكس، فقامت مقدمة الجيش بقيادة بيبرس بهجومٍ سريع، ثم انسحبت متظاهرةً بالانهزام لسحب خيّالة المغول إلى الكمين، وانطلت الحيلة على كتبغا، قائد جيش المغول، فحمل بكل قواه على مقدمة جيش المسلمين واخترقه، وبدأت المقدمة بالتراجع إلى داخل الكمين، وفي تلك الأثناء خرج قطز وبقية مشاة وفرسان الجيش، وعملوا على تطويق ومحاصرة قوات كتبغا، فعندئذ استعرّ القتال ولم يمض كثير من الوقت حتى هزم الجيش المغولي وقتل معظمهم بمن فيهم قائدهم كتبغا، ويعد بيبرس هو المهندس العسكري لمعركة عين جالوت.

بعد انتصار قطز على المغول في عين جالوت، ساق وراءهم لتحرير باقي مدن الشام، فتحررت دمشق وحماة وحمص، وأرسل بيبرس ليطرد المغول من حلب ويتسلّمها، ووعده بنيابتها، فلما طردهم منها وتسلّمها المسلمون، استناب عليها غيره، وهو علاء الدين ابن صاحب الموصل، وكان ذلك هو المسمار الأول في نهاية العلاقة الطيبة بين قطز وبيبرس.

كانت نهاية سيف الدين قطز بعد معركة عين جالوت بخمسين يومًا فقط، اتفق المؤرخون على أن قطز قُتل وهو في طريق عودته من دمشق إلى القاهرة في منطقة تسمى الصالحية، فبعد الانتصارات المتتالية والجيش في طريقه لمصر خرج قطز للصيد، فضرب دهليزه وساق خلف أرنب وساق معه بيبرس ومعه الأمراء الذين اتفقوا على قتله، فشفع بيبرس في شيء، فشفعه، فأخذ يده ليقبلها، فأمسكها وحمل عليه الأمراء بالسيوف فضربوه بها وألقوه عن فرسه ورشقوه بالنشاب حتى قتلوه، ثم كروا راجعين إلى المخيم وبأيديهم السيوف مصلتة، فأخبروا خبرهم فقال بعضهم: من قتله؟ فقالوا: ركن الدين بيبرس.. فقالوا له: أنت قتلته؟ فقال: نعم. فقالوا: أنت الملك إذًا يا خوند.

وقيل أيضًا إن قطز عندما ضربه الأمراء المماليك وقبل موته جاءت مجموعة من أمرائه الذين يؤيدونه لأنهم شكوا في الأمراء الذين خرجوا معه، وإذا هناك أمر قد حدث بالفعل.. فسأل قطز عن سبب ذلك الفعل، فأجابه بيبرس أنه شك أنه يريد قتله، كما قتل أميره فارس الدين أقطاي في قلعة الجبل، وأنه غضب لنزعه ولاية حلب، فأخبره قطز أنه كان سيعطيه السلطان، وعفا عنه لأنه أراحه من غم العيش بعد مقتل زوجته جلنار بنت جلال الدين السلجوقي، وأمر بتعيينه ملكًا على الدولة المملوكية.

بعد مبايعة بيبرس على ملك مصر، دقت الطبول فرحًا بذلك، ودخل قلعة الجبل وجلس على كرسيها، وقد لقَّب نفسه أول مرة بالقاهر، فقال له أحد وزرائه إن هذا اللقب لا يفلح من تلقب به، تلقب به القاهر بن المعتضد، فلم تطل أيامه حتى خلع وسملت عيناه، ولقب به القاهر صاحب الموصل، فسمم ومات، فعدل بيبرس عنه حينئذ إلى الملك الظاهر، استمر حكمه سبعة عشر عامًا أكمل فيها الحرب ضد المغول والصليبيين وأحيا الخلافة العباسية من جديد، ونهض بالبلاد نهضةً إنشائيةً واقتصاديةً لم يسبق لها مثيل، حتى وافته المنيّة، وقيل إن بعض مماليكه قد دسوا له السم في الطعام.

مملوكان غيَّرا تاريخ المنطقة إلى الا بدَّ، حاربا المغول وأنهيا زحفهم لاحتلال العالم.. وكانت نهاية أحدهما على يد الآخر.